مقال مراجعة موضوع

(الدراسات الثقافية والنقد الثقافي: الانسجام والاختلاف)

م. د. علي سرمد حسين
alisarmad4321@gmail.com
المديرية العامة للتربية في محافظة بابل

الملخص:-

يسعى هذا المقال لأن يوضحَ جدل العلاقة بين الدراسات الثقافيَّة والنقد الثقافيّ من حيث الانسجام والاختلاف، أي بوصف كلّا منهما له مساحة اشتغاله ورؤيته للثقافة للأدب، على الرغم ممّا بينهما من تداخل وانسجام؛ لأنَّ كثير من الباحثين لا يفرّق بينهما، وهذا الأمر ناتج من عدم وضوح الرؤية والإلمام بالأسس النظرية.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، الدراسات الثقافية، الانسجام، الاختلاف.

Cultural Studies and Cultural Criticism Harmony and Difference

Lecturer Dr.Ali Sarmed Hussein
General Directorate of Education in Babylon Governorate

Abstract:-

This article seeks to clarify the controversy over the relationship between cultural studies and cultural criticism in terms of harmony and difference, that is, by describing each of them as having its own area of work and vision of culture and literature, despite the overlap and harmony between them, because many researchers do not differentiate between them, and this is due to the lack of clarity of vision and familiarity with theoretical foundations.

Keywords: *Cultural criticism, Cultural Studies, harmony, difference.*

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الدراسات الثقافية بمفهومها العريض هو سعي لفهم اشتغال الثقافة. كيف تشتغل المنتجات الثقافية؟ كيف تتكون الهويات وتنتظم؟ سواء أكانت هوية الأفراد أم المجموعات في عالم الجماعات البشرية المتشعبة الممتزجة، وفي عالم سلطة الدولة وصناعة وسائل الاعلام، والشركات المتعددة الجنسيات. إذن تشمل الدراسات الثقافية الدراسات النظرية وتكتنفها، أما فيما يتعلق بمفهوم الأدب فهي تدرس الأدب بوصفه ممارسة ثقافية **(النظرية الأدبية، جونثان كلر، ٥٦)**، وقد جاء تعبير الدراسات الثقافية من خلال مركز الدراسات الثقافية بجامعة **برمنغهام** الذي تأسس عام ١٩٦٤. حيث شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصر في الجامعة في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية والتي تناولت وسائل الاعلام والثقافة الشعبية، والثقافة الدنيا، والمسائل الايديولوجية، والأدب، وعلم العلامات، والجنوسة، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية **(النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة، أرثر أيزابرجر، ٣١)**. سعى وليامز صاحب كتاب (الثقافة والمجتمع) إلى استعادة ثقافة الطبقة العاملة الشعبية واستكشافها والتي أغلقت لما عدّت الثقافة أدبا، وتلاقى هذا المشروع في استعادة الأصوات المهملة وفي النهوض بالتاريخ، حيث حلل الثقافة الجماهيرية كنقيض للثقافة الشعبية بوصفها تكوينا أيديولوجيا جائرا، وقد كان هذا التفاعل بين مفهومين للثقافة، الثقافة بوصفها تعبيرا عن الناس والثقافة بوصفها فرضا على الناس(١: ٧٥). وقد عبر كتّاب مركز برمنجهام عن فهمهم للدراسات الثقافية ومصادرهم النظرية لهذه الدراسات، وهذا ما نجده في قول (هوغارت) وهو أول مدير لمركز برمنجهام حيث أشار بوضوح إلى مصادر النظرية، محددا إياها بثلاثة مصادر، هي: **(النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، ٣٠)**.

أولًا: تاريخية وفلسفية .

ثانيًا: سوسيولوجية .

ثالثًا: أدبية نقدية، وهذا هو الأهم كما قال هوغارت وعلى الرغم من أن صدور الصحيفة لم يدم طويلا إلا أنها تركت اثرا كبيرا، إذ قدمت نوعا مما يمكن أن نسميه مصطلح **المظلة**، للعديد من المدارس التي تعمل في مجال النقد الثقافي.

ويرى جونثان كالر أن ظهور الدراسات الثقافية يرجع إلى أصل مزدوج، فقد جاءت أولا من بنيوية الستينات، التي تناولت الثقافة (بما فيها الأدب) بوصفها سلسلة من الممارسات ينبغي وصف قواعدها وأعرافها ويعدّ كتاب (أسطوريات) للناقد الفرنسي رولان بارت واحدا من مؤلفات الدراسات الثقافية الباكرة، حيث يضطلع بقراءات موجزة لدائرة من النشاطات الثقافية، بدءاً من المصارعة الاحترافية، والإعلان عن السيارات ومواد التنظيف، الى الأشياء الثقافية الأسطورية كالخمرة الفرنسية ودماغ انشتاين **(النظرية الأدبية، جونثان كلر،٥٦)**.

أما المصدر الآخر للدراسات الثقافية فهو **مدرسة فرانكفورت**، إحدى جماعات النقد الماركسي التي ازدهرت في الولايات المتحدة عام ١٩٣٠، على يد كل من هوركهايم، ادورنو، ماركوز، فروم. وفترة التجديد من بداية السبعينيات الى الثمانينيات وهي فترة هابرماس وكلاوس والبرخت فيلمر. **هدفها** تقويض الثقافة البرجوازية والرأسمالية الاستهلاكية، وتغيير المجتمع على جميع المستويات والأصعدة والمؤالفة بين النظرية والممارسة بين العقل النظري والعقل العلمي. وقد أولت عناية كبيرة للذات في تفاعلها مع الموضوع تعتني بالقيم والاخلاق، وبتفاعل الذات مع المجتمع على ان تكون الذوات البشرية مستقلة وغير خاضعة لحتميات موضوعية، بمعنى أن للانسان دور كبير في صنع التاريخ وتغيير مجتمعه **(نظريات النقد الادبي في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي، ١٣٢)**. كذلك ركزوا اهتمامهم على البنية الفوقية، وأكدوا أن وسائل الاعلام الجماهيرية قد حالت دون أن يتخذ التاريخ مجراه الحتمي، أي أنها أفسدت عقول الجماهير، لأن البشر في الطبقة العاملة قد استدرجوا الى **ثقافة الاستهلاك**، وانغمسوا في المتع السطحية والمبتذلة التي تقدمها الثقافة الشعبية، كما تم غسل عقولهم بوسائل الاعلام الجماهيرية ومن ثم فقدوا الاهتمام بهوية طبقتهم، فقد رأى ادورنو أن الابقاء على الوضع القائم مهم للطبقات الحاكمة

في المجتمعات الرأسمالية التي تريد الاحتفاظ بالسيطرة على كل المجالات والاشياء بما هم عليه. إن الفكرة القائلة بأن الثقافة والفنون ادوات ايديولوجية للنخبة الحاكمة التي استخدموها في غسل مخ الجماهير وثيقة الصلة بالنظرية الاستالينية، وبهذا أكدت هذه النظرية على أن أعمال الفن يجب أن تصطبغ بالواقعية الاجتماعية، إن المجتمعات الرأسمالية تستفيد من الثقافة والفنون لتحفظ بقاءها وتمنع الثورة أو أي تغيير اجتماعي.

إنَّ الهدف من **صناعة الثقافة**- كما يرى أصحاب النظرية النقدية-هو التلاعب بوعي الجماهير كي يبقوا على المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية **(النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الريئسة، أرثر أيزابرجر، ٨٤، ٨٥)**. وهذا ما يخدم أصحاب الثروة الضخمة في المجتمعات الرأسمالية. وفقا لماركس أن الطبقة البرجوازية وهم الذين يسيطرون على أسلوب الإنتاج في تعارض مع طبقة العمال (البروليتاريا) وتسيطر عليها وعلى أفكارها، يرى ماركس أن الطبقة التي تسيطر على القوة المادية (البنية التحتية) تسيطر على القوة الفكرية والعقلية (البنية الفوقية)، لذلك البرجوازية تتحكم في وسائل الاعلام وتستخدمها لنقل الايديولوجيا الخفية التي بها تدعم الوضع القائم، فضلا عن أن أبطال المسلسلات والقصص موجهة من قبل البرجوازية، بحيث تكون أفكارا تروّج للايديولوجيا الرأسمالية **(النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الريئسة، أرثر أيزابرجر، ٨٦، ٨٧)**.

وهناك نظريات أخرى ساهمت في إفراز النقد الثقافي الى جانب مدرسة برمنغهام وفرانكفورت كنظرية ما بعد الحداثة والتفكيك، ونظرية **التعددية الثقافية**، والنقد النسوي، والمادية الثقافية، والماركسية الجديدة، ونظرية الجنوسة، والنقد الاستعماري، والتلقي، والتأويل، **وثقافة الوسائل أو الوسائط الاعلامية** والخطاب السردي.

❁ ❁ ❁

إنّ الدراسات السابقة كلّها كانت منبعا لظهور النقد الثقافي، غير أنَّ الظهور الفعلي للنقد الثقافي ظهر عام ١٩٨٥ على يد ليتش مستفيداً من نظريات ما بعد الحداثة والانثربولوجيا. ويعدُّ ليتش أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي على نظرية ما بعد الحداثة واهتم بدراسة الخطاب في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسياسة المؤسساتية ومناهج النقد الادبي. وتستند منهجية ليتش إلى التعامل مع النصوص والخطابات ليس من الوجهة الجمالية ذات البعد المؤسساتي بل تتعامل معها من خلال رؤية ثقافية تستكشف ما هو غير مؤسساتي وما هو غير جمالي. كما يستفيد ليتش من جميع المناهج الادبية المعروفة.. منهجيته تعرية للخطابات بغية تحصيل الأنساق الثقافية وتقويم أنظمتها التواصلية، مع التركيز على الأنظمة العقلية واللاعقلية للظواهر النصية لرصد الأبعاد الايديولوجية متأثرا بديردا وفوكو وبارت (نظريات النقد الادبي في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي: ١٩٥).

❁ ❁ ❁

إذا كان النقد الثقافي نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكريه ويعبر عن مواقف إزاء تطورها وسماتها، فيمكن القول إن الدراسات الثقافية هي التي هيّأت المناخ المناسب لظهور النقد الثقافي، هذا ما نجده في إحدى إشارات ادورنو عام ١٩٤٩ تحت عنوان النقد الثقافي والمجتمع، فقد هاجم ادورنو ذلك النشاط الذي يربطه الكاتب بالثقافة الأوربية بوصفه نقدا بورجوازيا يمثل مسلمات الثقافة السائدة ببعدِها عن الروح والحقيقة للنقد وما فيها من نزوع سلطوي للسائد والمقبول عند الأكثرية، على أن هجوم ادورنو بوجه خاص كان على الثقافة الغربية في المانيا كونها متسامحةً مع النزوع التآمري ضد الأقليات وذوي الاتجاهات الثقافية المختلفة من جماعات وأفراد وعليه فإن الدراسات الثقافية تهتم بعمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها وهي واسعة، تشمل دراسة التاريخ وأدب المهاجرين والعرق والكتابة النسائية، والجنس والشذوذ ..كل ذلك من أجل كشف نظرية **الهيمنة** وأساليبها. أما النقد الثقافي فعبارة عن مقاربة يستكشف الأنساق

والأنظمة الثقافية ويجعل من النص أو الخطاب وسيلة لفهم المكونات الثقافية المضمرة في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي(دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي،: ٧٧).

انطلاقا مما سبق يمكن القول إن غاية النقد الثقافي البحث عن الأنساق المضمرة في النص، وهذا الشرط ركّز عليه الغذامي بقوة في كتابه(النقد الثقافي)، غير أن هذا الشرط على الرغم من أهميته ليس كافيا ما لم تتضافر معه مسألة الموقف النقدي، أي أن ناقد النقد الثقافي ينبغي أن يتخذ موقفا نقديا من المدروس، لأن النقد الثقافي يُعنى بالآلية التي تظهر بها الأنساق للوجود، وكيف تتغلغل إلى النصوص، وفي هذه المساحة يضيف الدكتور عبد العظيم السلطاني شرطاً ثالثًا، وهو أن النقد الثقافي ((ليس بحثا فيما هو نظري وإنما هو فعالية تطبيقية)) (نقد النقد الثقافي، عبد العظيم السلطاني: ٣٨) إن توافر الشروط السابقة هو ما يجعل من النقد الثقافي ذات هوية خاصة به ينسجم مع الدراسات الثقافية في بعض المواضع ويختلف عنها في مواضع أخرى، ولهذا لا يمكن عد كل دراسة ثقافية على أنها نقد ثقافي والعكس صحيح، ولو تتبعنا الكثير من الدراسات النقدية التي تزعم أنها تنطلق من النقد الثقافي لوجدناها فاقدة لتلك الشروط أو لبعض منها، لا سيما فيما يتعلق بالموقف النقدي.

قائمة المصادر

١- النظرية الأدبية، جوثان كلر، ترجمة رشاد عبد القادر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤.

٢ النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الريئسة، أرثر أيزابرجر، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، مصر، ط١، ٢٠٠٣.

٣- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٥.

٤- نظريات النقد الادبي في مرحلة ما بعد الحداثة، جميل حمداوي، شبكة الألوكة.

٥- دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٥، ٢٠٠٧.

٦- نقد النقد الثقافي، عبد العظيم السلطاني، جامعة الكوفة، ط١، ٢٠٢١.